

الخميس 2010-10-07

1133- في شرف صحبة نجيب محفوظ



في شرف صحبة نجيب محفوظ

الحلقة الأربعة والأربعون

الجمعة: 1995/3/11

كادت القاعدة تصبح ألا أحضر يوم الجمعة بوجه خاص، بسبب سفرى المنتظم نهاية الأسبوع كما ذكرت، حين أقول له إنه أصبح بيته أكثر من بيتي، لا أقولها مجاملة، وإنما فرحة، هذا الأسبوع هو في بيتي أيضاً، أعنى بيته، الحمد لله، لم أحضر لقاءه الأسبوع الماضى، دون أدنى حرج، كان الأستاذ طيباً "ملعلعلاً" هذه الليلة، ربنا يخليه، جرى الحديث عن التاريخ وتدوينه ومفى المصادقية في ذلك كله، ياه!! لن ينتهى هذا الحديث أبداً، مثله مثل حديث الديمقراطية، وأيضاً موضوع احتمال أن يتولى الإخوان الحكم، ضربت مثلاً لأبين مدى اهتزاز مصادقية التاريخ: كتابة هذه المذكرات مثلاً، فلو أن واحداً طلب من الجلوس معنا الآن أن يسجل ما حدث هذه الليلة لمدة ساعة واحدة، بعد سبع دقائق من انتهاء الحديث فكم منا سيتفق مع كم منا في حكي نفس الحكاية؟ فما بالك إذا طالبناه بحكيها بنفس الألفاظ، وهنا تارت قضية كتابة الأناجيل (والأحاديا النبوية الشريفة): قال الأستاذ: إن الأناجيل كتبت بعد سبعين سنة من موت المسيح، وباسترجاع تاريخ المسيح الذى لم تستمر رسالته سوى أربع سنوات قال الأستاذ أنظر ماذا بقى للناس من ذلك بعد كل شئ: الرومان بهيلمانهم وسلاحهم ينتهون هكذا أمام شاب وديع يعيش في حارة ويشفى بعض المرضى، لا بد أن الأمور كانت مهياً لهذه النقلة، مثلما حدث

في الإتحاد السوفيتي، فحين همس، ثم قال، ثم أعلن جورباتشوف بأنه "لا" ليس هكذا، وتصدى لما يجري من حكم شمولي، وشوعية عمياء قاسية، إنهار الإتحاد السوفيتي، ربما كان مثل ذلك هو ما فعله ابن الامبراطور الروماني حين آمن بالمسيحية، لكنه بعد ذلك طاح في غير المسيحين نساء ورجالا وأطفالا فانعكست الآية، قلت له ألا يطمئننا هذا إلى أنه فعلا "لا يصح إلا الصحيح" وأنه لا الحكم حاليا، ولا حكم الجماعات إياها لو جاءت مهما اشتد عودها وعلا صوتها، سوف يدوم أي منهما، مادام توجه هذا وذاك هو ضد التاريخ وضد صالح البشر، فأقر كلامي الذي تعلمته منه أصلا.

انتقل الكلام إلى غلبة التفكير التأمري في الشرق خاصة، وقال أحدهم أن جمال عبد الناصر نفسه ليس إلا صنعة الأمريكان، وحتى حرب 67 قيل أنها كانت لتخلص من عبد الحكيم عامر، نبهنا الأستاذ بوضوح: أنه ليس إلى هذه الدرجة، وإلا لصدقنا الإشاعة التي أشاعها الإخوان أن عبد الناصر كان يهوديا وكان يسكن في حارة اليهود مع أبيه، ولا يسكن في حارة اليهود إلا يهودي، في حين أن المسألة كلها هي أن حي الخرنفش يقع بجوار حارة اليهود، ويبدو أن نافذة منزل والد عبد الناصر كانت تطل على حارة اليهود، لكن خذ عندك.

فجأة قال الأستاذ أنه أثناء نوم القيلولة هذه الظهيرة حلم بجمال عبد الناصر وكان الحلم هكذا:

"هو جالس يتكلم أو يهم بأن يتكلم في التليفون وإذا بعبد الناصر يدخل عليه فأسرع بإنهاء المكالمة أو قطعها ليترك التليفون لعبد الناصر الذي تكلم فعلا وطلب رقما يذكره الأستاذ بوضوح وهو 1616، (ستاشر ستاشر) ثم سمع صوت آخر في الردة يقول: إن عبد الناصر يكلم واحدة، وأنه لابد متزوج من أخرى".

إنتهى الحلم .

فرحت أن يتطوع الأستاذ بحكي مثل هذا الحلم هكذا بهذه البساطة، وتعجبت بيني وبين نفسي من هذا الوضوح، واجتهد الجلوس في التفسير، دعابة، وجدًا، "ستاشر ستاشر" هذه واحدة، وزكى سالم يقول لعل هذا يبين أن عبد الناصر الذي نعرفه غير عبد الناصر الذي وصفه الأهرام مؤخرا وأكد على مرجه حتى كاد يقارنه بسعد زغول (علي ما أذكر)، وأن عبد الناصر - مثل أي بشر- له جانب آخر، أو كما يقول الحلم: زوجة أخرى، ولم أشارك في تفسير الحلم تأكيداً لموقفى من حكاية تفسير الاحلام مما ذكرته مكرراً، كل ما عقبته به - ربما لنفسى- هو أن ما بلغنى هو أن بداخل الأستاذ طفل جميل، له خيال بديع، وأن مستويات وعيه هي حقل خصب مليء بعبد الناصر وغيره، وفي نفس الوقت يصلنى من حكي الحلم وسلاسة النقلات نوع الحركية الدمثة بين مستويات وعيه، وأستنتج كم أن ظاهر الاستاذ قريب جدا من باطنه، وأن خياله في هذه السن مازال نشطا تماما، ومتناغما مع أفكاره ومواقفه

على ذكر السن، نسيت أن أثبت ما حدثنا الأستاذ به أمس (في لقاء الخرافيش) عن أولاد أخيه إبراهيم الذين ماتوا الواحد تلو الآخر وهم بعد في العقد السادس أثناء العمل رغم أن والدهم معمر، ثم عرج إلى والدته التي عمرت إلى ما يناهز المائة سنة، أو لعلها تحطتها، وقد كانت تتبع جميع العادات السيئة (الغذائية والصحية) المشهورة بتقصير العمر، وحتى السجائر لم تكن تدخنها، لكن الأخ الأكبر راح يداعيها في سن الثمانين ويعزم عليها بالسجائر، فتمسكت بها حتى الوفاة.

وأمس أيضا (في جلسة الخرافيش كذلك) جاء ذكر وفاة أمينة زغلول صاحبة حملات "لفلقة"، ماتت ثاني أيام العيد، وكانت امرأة لها تاريخ زاخر، أحبها توفيق صغيرا، من بعيد لبعيد، فهي من الاسكندرية، وتزوجت ابن أخت الأستاذ واسمه نبيل على ما أذكر، واتهموا الأستاذ أنه شجعه على ذلك، ويعقب على هذه الإشاعة أنه: "والله العظيم ثلاثة لا شجعتُه ولا حاجة" ويحكى القصة: وكيف أنه جاءه بصفته خاله يسأله عن رأيه في امرأة جميلة يحبها، ويريد أن يقترن بها، فقال له: أنت تسافر إلى الخارج كثيرا، فانتظر حتى ترجع بعد أن تبتعد عنها مدة، وعن زوجتك وأولادك أيضا، ثم فكر بهدوء. وقد فعل، وسافر، وفكر بهدوء، وتزوجها، أنا مالي!!؟"، ويضحك، ونضحك.

كانت تيمة فيلم "ابنة ريان" قد أخذت حيزا أمس جعلني أتوقف أمام ذكريات الأستاذ وهو يحكى أن هذه التيمة المكررة تيمة الذي يذهب للانتقام فيقع في حب غريمه - تكررت في دعاء الكروان لطف حسين، وفي كيلوباترا، وكذلك تيمة زوجة الأخ التي تغوى شقيق زوجها أو ابن زوجها ثم تتهمه هو أنه الذي أغواها، من أول امرأة العزيز وأنت قادم، فذكرته بأن هذه التيمة ربما هي التي جاءت في ملحمة الخرافيش (ربما عزيز الناجي..).. ولم أستطرد، ولم يعقب.

رجعنا إلى حديث الإشاعات ومصادقية التاريخ وقال لنا الأستاذ كيف أن السلطة والإنجليز كانوا قد منعوا اسم سعد زغلول من التداول، حتى كان ساعى البريد يكتب "سعد زغلول" على الخطابات، وكان بائع البيض يكتب "سعد زغلول" على البيض، فسارت إشاعة بعد ذلك أن الفراخ تبيض بيضا مكتوبا عليه "سعد زغلول"، ورفضها سعد باشا طبعا، ونفاها، وأوصى بعدم تداولها.

وعلى ذكر تليفون عبد الناصر - في الخلم- ورقم "ستاشر" ستاشر" الذي تكرر، تذكر الأستاذ أغنية لا أعرفها لسيد درويش تقول: "خمسة في ستة بستاشر، وباريس في الوجه البحرى" وعقب عليها، وربما تذكر أهدنا أغنية شادية: "خمسة في ستة بتلاتين يوم غايب عني وغاب النوم"، وقلت له إنه كانت عندنا أغنية تسخر من المدرسين بظرف، كنا نردها رسميا في احتفالات المدرسة الابتدائية في زفتا، بسماع اساتذتنا ومشاركتهم وفيها فقرة تقول:

جه أستاذ الحصة الساتة، أستاذ هندسة ويا حساب،
قال لي اضرب لي خمسه ف ستة، ولا اتفضل بزّه الباب،
قلت يا بيه أضرب مين فيهم،
دول تلاتين ما اقدرش عليهم،
أنا غلطان؟
مش غلطان؟
إمال يعنى اتعاقب ليه؟
الأستاذ الحق عليه،

ويضحك الأستاذ، وأعيد عليه كيف أن المدارس الآن تزيف
وعى الأطفال بأغان مديح ماسخه من أول "مدرستى أيا ملاحا،
أهواها وأدوب في هواها" حتى "والفضل كله لباب جمال.. ثم
الفضل كله لبابا سادات" وربما أحسوا أن البيت سوف ينكس
لو قالوا "والفضل كله لبابا مبارك" .. وربما لهذا أرجعوا
حاليا "الفضل كله لماما سوزان.."، ولا يعقب الأستاذ، ويصلى
من جديد احترامه الحقيقي لمن في موقع مسئولية حقيقي، برغم
سماعه بالضحك على بالنكت أحيانا، فأنتبه إلى صمته الآن
وأفترح اقترابا من الواقع واحتراما لمشاعره، وحفاظا على
الأولاد والبنات أن يقلبوا الأغنية هكذا: "والفضل بعضو
لبابا جمال... الخ" ويضحك الأستاذ عاليا على إحلال "بعضو"
مكان "كله"، وكأنه قبل اعتذارى.

ثم تواصل الحديث عن سعد زغلول، وهل له أخطاء جسيمة أم
لا، وأردت أن أعفى الأستاذ من الاضطراب للحديث عن أخطاء
هذا الزعيم الذى يحبه حبا شديدا، فإذا به يكشف محاولتى
ويرفضها ويحكى عن بعض أخطاء سعد، مثل إصراره أن يرأس
الوفد دون عدلى يكن الذى كان رئيسا للوزارة، وكان من
البيهي أن يرأس الوفد رئيس الوزارة

وعلى ذكر التاريخ ومفارقاته ذكر الاستاذ ثانياة كيف
أنه كثيرا ما تسمى عصر ما باسم المستضعفين فيه وليس باسم
الطغاة، فمثلا: نسى الناس الرومان التى خلت طيبة تماما
منهم بعد قتلهم جميعا، فلا أحد يذكرهم (لا أذكر تفاصيل
أكثر). كذلك بالنسبة لرمسيس الثانى الذى ذكر أنه انتصر
على الحيثيين، ثم تمضى ستين سنة لا يحارب فيها وتظهر معاهدة
بينه وبين الحيثيين، وأيضاً يثبت أن إحدى زوجاته كانت ابنة
ملك الحيثيين (لا أذكر ما العلاقة تحديدا!!).

وعلى ذكر سعد زغلول يحكى الاستاذ أنه حين كان سكرتيرا
لعلى عبد الرازق (عرفه عن طريق الشيخ مصطفى عبد
الرازق)، يذكر أنه كان عنده في مكتبه ليوقع بعض الأوراق،
ودخل عليه أحد وزراء "عدلى يكن"، وعزفه الوزير بالاستاذ،
فحسبه من عائلة محفوظ أحد أقطاب الأحرار الدستوريين، فقال

له بالحرف الواحد "شوف يا سيدى عايزين يجزجوا الإنجليز!!!
 دول همّا يجرجوا النهارده، واحنا وراهم بكره"، ويضيف
 الأستاذ: إن نسبة كثيرة من هذه الصفوة (أصحاب المصالح) كانت
 تقول إن أعباء الاستقلال كبيرة (جيش وأسطول وطيران.. الخ)،
 وكانت تفكر في صورة مثل صور الدمينكون، وأن كثيرا منهم
 كانوا يستكثرون الإستقلال على مصر، فذكرت له أن هذا كماوقف
 بعض العامة أيضا، وحكيت له ما حكاه لى والدى عن زميل له
 مدرس لغة عربية كان ما زال معمما، زميله في مدرسة
 العباسية الابتدائية في الثلاثينات، وقد أعلن هذا الشيخ من
 موقع العارف بمقائى الأمور عن رأيه فيما ما ينتظر مصر بعد
 هذا الاستقلال، أعلن تحفظه على قدرة مصر لإدارة شؤونها، (ربما
 بمناسبة معاهدة 1936) وقال الشيخ زميل والدى في ذلك كلاما
 أشبه بما قاله وزير عدلى يكن في مكتب على عبد الرازق للأستاذ
 من حيث أننا لسنا أملا لتحمل مسئولية الاستقلال، وساء موقف
 هذا الشيخ زملاءه في المدرسة، وكان من بينهم شاعر ظريف نظم
 فيه شعرا حكاه لى والدى، وما زلت أذكر نصه، وطلب منى الأستاذ
 أن روايته إن كنت أذكره، فقلته:

خَرَفَ الشَيْخُ فَضْلا رام يعلو فتدلى
 ماله وهو ابن مصر ساءه أن تستقلأ
 من ليرجلى بقفاه إنه يصلح نعلا

ويضحك الأستاذ من هذا الهجاء الظريف، وبالذات من وصف
 الشاعر لقفنا الشيخ الذى يصلح نعلا، ولم أذكر له أن والدى
 كان يربط هذه الحادثة باستجابة جدتى لأمى (حماته) حين دخل
 عليها فرحا مهللا في نفس المناسبة وهو يصيح: "مصر استقلت
 ياينة"، فمصممت شفتيها آسفة وقالت وهى تحبب صدرها: "يا
 عيني!!!" (وكان والدى قد فسر لنا ذلك أنها فهمت كلمة
 "استقلت" على أنها من القليل والقلة)

وانتقل الحديث إلى عراي، وأنه أيضا اتهم بأنه استُعْمِلَ
 ضمن مؤامرة ما، وقلت رأبي في أن هؤلاء الناس التاريخيين لا
 ينبغي أن نكتفى بتقييم حماسهم وحسن نيتهم، كما لا ينبغي
 أن نتغافل عن أخطائهم مهما بدت الشهامة ووعدت البدايات،
 وأثار أحدهم احتمال مقارنة تثبت أن ثمة شبه بين عراي
 وعبد الناصر، وأن عراي - مثلا- لم يكن يفهم لا في الحرب ولا في
 السياسة، وأنه أقدم على ما ليس في قدرته مثلما فعل
 عبدالناصر سنة 67، وأن ثورة عراي لم تكن ثورة بل كان
 "هوجة" تماما مثلما كانت ثورة 1952 "حركة مباركة" وليست
 ثورة. ودافع بعض الجلوس عن فكرة الثورة حتى لو خابته،
 وانتقل الحديث إلى عبد الناصر وكيف أنه بعد أن حرك كل هذه
 القوات قبل 5 يونيو، عاد يؤكد بعد أن حدث ما حدث ما
 معناه: أنه "ما كنتشى قصده"، و: "أنه والله العظيم ما كان
 ينوى الحرب" ولم يوافق أكثر الجلوس على هذا الهجوم هكذا بعد
 كل هذه السنين والإنجازات، وقرأت وجه توفيق صالح وشعرت أنه
 من أكثر المعارضين للهجوم على عبد الناصر هكذا.

أطلق سراح هذه البيولوجيا اللغوية لأهل هذا اللسان فافتربوا من فطرتهم فأسلموا، وأكرر دهشتي وإعجابي بهؤلاء الذين لا يتقنون العربية ثم يسلمون، وأعيدت الإشارة إلى إسلام السفير الألمانى "مراد هوفمان" وما وصلنى من كتابه الذى أشرت إليه سالفاً، وكيف أنه التقط نبض القرآن الكريم هكذا وهو ليس عربياً، وأعلن خجلى من، وأسفى على، أهل اللسان العربى الذين تنازلوا عن إعادة معايشة لغة قرآنهم وأهدروا هذه الفرصة النادرة، ولم يعجب الكلام بعض الجلوس، ووصلنى تعليق الأستاذ من درجة هزة رأسه كنوع نوع "الموافقة المحدودة"، وهذا هو طبعه الغالب حين لا يريد الإعتراض الصريح.

كانت معنا فى هذا اليوم د. مها وصفى وزوجها الطيار محمد، وقد ذكرت بعض حوارها مع شخص مسيحى لم تجد بينها - وهى المسلمة المحجبة - وبينه فروقا تذكر إذا قيست المسألة بمقاييس الفطرة والبسط والإبداع والتوجه للخير، وقلت للأستاذ هل يذكر مسألة القيم والأخلاق الجديدة التى تصورث، أو أملت أنها قادمة لا محالة وكنت قد عدتها له، وبيئت كيف أننى أعتقد أنها على وشك الولادة مع هذه التغيرات العملاقة فى "الوسائل" الحديثة، ثم الأحدث فالأحدث، وأكملت: إننى أحسب أن هذه القيم الجديدة سوف تقع فى منطقة ما من الوعى البشرى بحيث تكسر كلا من "الإيمان" و"الواقعية" حالة كونهما متجهين إلى "عدل ممكن" (ولو نسبي) إذ يبدو أن العدل (وهو اسم الله) هو قيمة جاذبة إليه (إلى الله)، لكن يبدو أنها ليست ممكنة التحقيق "هنا والآن" (حالا). وأضيف أن العدل هو احتمال دائم الحضور، وفى نفس الوقت ناقص التجلى، إلا أنه فى كل حال دائم الجذب إليه، والله (العدل سبحانه) هو أيضا كذلك، دائم الحضور دائم النداء إليه، وهذا غير الوصول إليه، ولم أستطع أن أشرح أكثر من ذلك، وحين يصل الحوار إلى هذا النوع من التنظير يتوقف الأستاذ عن التنازع، فقد لاحظت أنه ذو حضور فلسفى، وتوجه فلسفى، وإيماءات فلسفية، لكنه قادر على أن يصيغ كل ذلك فى لغة غير فلسفية، لغة عادية أشد ما تكون العادية، وهذا من أروع ما عرفته من تجلياته فى الفعل اليومى، فى القول اليومى، فى السرد اليومى.

ونرجع إلى حضور الدكتورة مها وصفى وما جرننا إليه من حديث عن خيرة وروعة "الولادة" (البيولوجية) وكيف أن التدخل الطبى الحديث بالتخدير شبه الختمى عند الولادة قد حرم الأمهات من معايشة هذه الخيرة، ويعترض توفيق صالح محتجا من أنه لا يمكن أن تكون آلام الولادة كما عاينها ويسمع عنها هى خيرة رائعة كما تقول د. مها، وأنبهه إلى أن الألم ليس مناقضا لروعة الخيرة وعمقها، وأحيله إلى الدكتورة مها (وعندها طفلان)، فتحدثت عن خبرتها أثناء الولادة، وأنها كانت على يقين من الفرج القريب، ومن عبور القادم المضيق بسلام بفضل الله، فيؤكد توفيق صالح أن ذلك تفسير عقلانى يستند إلى موقف دينى، لكن الألم الذى لا يخففه بالضرورة هذا اليقين الدينى هو ألم بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، فأعود أحاول أن أوصل له موقفى من أن الألم لم يصبح كذلك فى أغلب حالات

الولادة العادية إلا بعد أن انفصلت الأم (الانثى) عن الطبيعة، وافتقدت الأم إلى التدريب على برامج الحركية المرنة، بما في ذلك حركية الدخول والخروج، التي تتجلى في مخاض الولادة الذي يتراوح بين الاحتواء والسماح.. الخ. وحكيت عن معلوماتي في باريس عن مراكز التدريب على الولادة بدون ألم، وعن الخبرة التي وصفتها بعض الأمهات من أنهن يصلن إلى "ذروة هزة الجماع" أثناء الولادة، ثم عن خالتي "صديقة" (سديقه) التي ذهبت تجمع بعض الملوخية لأمدى من حقول القطن وهي في شهرها التاسع، ثم عادت تحمل ولیدها الذي ولدته وحدها في الخلل، فلفته في طرحتها، وربطت الخبل السرى بنفسها، وتحلصت من "الخلاص" في التربة بمعرفتها، ثم وضعت طفلها في "المشنة" - فوق الملوخية، وعادت تحمله على رأسها إلى الدار سائرة على قدميها.

ومرنا هذا الحديث إلى تفسيري لطقوس السبوع، وكيف أن الولادة النفسية تتأخر كثيرا عن الولادة الجسدية، وأضيف أن هذا أيضا من ضمن التشوهات التي لحقت بالعملية الإيجابية، إثر الانفصال عن الطبيعة، فراح الخدس الشعبي يستلهم وجدانه فألف هذه الطقوس التي يريد بها أن يشحن إنتباه "الأم" حتى تدرك أن ما كان بداخلها قد أصبح خارجها، قلت: إن "دق الهون" هو للأُم وليس للطفل، ثم إنهم يطلبون من الأم أن تحطى وليدها في الغربال سبع مرات، **(أنظر تفاصيل ذلك في نشرة السبوع بتاريخ 2008-1-22)** وكأنهم مع كل دقة "هون"، ومع كل خطوة (وتخطية) يقولون لها "هذا هو طفلك خارجك - صدقي أن ما كان بالداخل ملكك وحك، أصبح كيانا مستقلا منفصلا عنك"، وأضفت أنني حاولت أن أعمل بحثا علميا لأثبت بعض هذا، فظهرت النتائج مضحكة، ولم تثبت شيئا، وعزوت ذلك ليس لقصور في الفرض، ولكن خيبة في الطريقة (المنهج) فسؤال الأم (مثلا) عن معنى كذا أو كيت، أو عن ما تشعر به إزاء هذا الطقس أو تلك الأغنية "بزجالاتك... بزجالاتك" "إسمع كلام أمك" (ربما تطمن ببألها أنه مازال طوع إشارتها)، "ولا تسمعشى كلام أبوك، عشان أمك بتعرف عن أبوك" .. إلخ حين تُسأل الأم بالألفاظ أثناء إجراء بحث علمي عن كل هذا، لا بد أن نتوقع أنها سوف تجيب عن أي شيء إلا عن ما يعنيه هذا الفرض من التأكيد على حركية الوصل/الفصل، وعلى برنامج الدخول والخروج، وعن الولادة النفسية .. إلخ.

(ملحوظة : أكتب هذه الإضافة يوم 1995/3/22 في أنطاكيا بتركيا، في شرفة فندق متواضع اسمه "ساره"، وقد وجدت في أوراقى مقتطفا عن نجيب محفوظ لا أعرف متى أثبتته، حين قال لي: أن بعض الأتراك، أو الذين من أصل تركي، كانوا يرددون مازحين أو جادين ردا على من يفخر أن "النبى عربى" كانوا يرددون قائلين: إذا كان النبى عربى.. فربنا تركى).